ألوان الشعر وفنونه

من المعروف أن العرب يقسمون الشعر إلى فخر وحماسة ومدح وهجاء ، وعتاب ورثاء ، وغزل وتشبيب إلى غير ذلك من الأغراض . وتلك الأقسام جميعها تسمى لدى غير العرب بالشعر الغنائى أو الموسيقى لأنه يؤثر على النفس كتأثير الموسيقى . ويقول «جورجى زيدان» ويقسم الشعر عند الإفرنج إلى ثلاثة أنواع : « قصصى ، وغنائى ، وتمثيلى »[1] ويقول الأستاذ « أحمد حسن الزيات » أنواع الشعر ثلاثة : شعر غنائى أو وجدانى : وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره ، وشعر قصصى : وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية فى شكل قصة كالإلياذة ، والشاهنامة ، وشعر تمثيلى وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعه فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلاً منهم بما يناسبه من الأقوال ، وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال[2] وسنعرض لهذه الألوان ، وتلك الفنون بشىء من التفصيل حتى يتسنى لنا استكشاف كنه الحقيقة ، وإزاحة ما علق بهذه القضية من لبس أو غموض .

أولاً : الشعر القصصى :وهو لون من ألوان الشعر ، بل هو من أقدم هذه الألوان وهو يعنى بسرد الأحداث من الشعر موزونًا ، أو غير موزون على سبيل القصة ، وغالبًا ما تكون هذه القصة دينية ، وأبطالها الآلهة ، وجل حوادثها عنهم وبهم ، والشعر من أقدم الآداب لدى الأمم جميعها ، ومن أقدمها الشعر الدينى المتعلق بالآلهة ، ومن ميزاته أن قصائده طويلة ، وقد تمتد إلى آلاف الأبيات وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير قد يكون بجانبه أبطال آخرون ، وهى فى حقيقتها قصة بيد أنها صيغت شعرًا ، ويكون التسلسل فيها دقيقًا ، والانتقال بين أجزائها منطقيًا ومحكمًا ، وهى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ١/ ٦٠ ط ، دار الهلال ، ١٩٥٧م .

(٢) تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات ، ص٣٠ ، طبعة دار نهضة مصر .

تعتمد على الخيال ، ومن هنا كثرت فيها الأساطير وذلك (كالإلياذة) للشاعر اليونانى (هوميروس) والتى نقلها إلى العربية (سليمان البستانى) وهى خير من يمثل ذلك الضرب ، وللأمم القديمة والحديثة قصائد تشبهها كالإلياذة للشاعر الرومانى (فرجيل) وللهنود أيضًا (المهابهاراتا) وللفرس (الشهنامه) وهى للفردوس ، وأنشودة الظلام للألمان ، وأنشودة (درولان) للفرنسيين[1] .

ومن هذا القبيل بعض الأشعار العبرانية مثل (سفر داود) ونشيد الأناشيد ، فإنها شعر دينى بيد أنها ليست من النوع القصصى ولكنها موسيقى حيث إن الشعر القصصى نادر فى أشعار الساميين على الإجمال إلا السريان ، فإن القديس (إفرام) نظم شيئًا منه ، ولعله قبسه من اليونان .

أما العرب فإنهم يخالفون العبرانيين من حيث الشعر الدينى لأنه لم يكن عندهم فى الجاهلية ، ولا يعقل أنهم خالفوا إخوانهم فيه ، ولابد من أنهم نظموا أشعارًا يخاطبون بها أصنامهم (اللات والعزى) وغيرها من معبوداتهم يومذاك حيث كانوا يصلون لها ، ويخشعون أمامها . بيد أن موضوعاتهم فى ذلك درست وانمحت لعدم تدوينها ، ولبعد المسافة الزمنية والتى لا يختلف فيها اثنان بين هذا اللون من الشعر وعصر التدوين ، والتى تبلغ قرنًا ونصف أو قرنين من الزمان . وبخاصة بعد ظهور الإسلام حيث انصرف الرواة عن حفظها لأنها وثنية ، والإسلام يجب ما قبله من عبادة وتمجيد للأصنام والأوثان ، واكتفت العرب بتدوين الشعر الذى قيل فى الأغراض الأخرى ، وما بقى من الأشعار الدينية فهو جد قليل ، وجاء ذكرها عرضًا فى تراجم بعض شعراء الجاهلية كأمية بن أبى الصلت . والشاعر فى هذا اللون يكون موضوعيًا بمعنى أنه ينكر ذاته . ولا يتحدث عن عواطفه بل يتحدث عن بطل معتمدًا على خياله ، مستمدًا ذلك من تاريخ قومه ، وكل عمله أن يقوم بترتيب القصة والأشخاص ويجمع لها المعلومات وبذلك يكون قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يحيد عنه .

---

(١) العصر الجاهلى للدكتور/ شوقى ضيف ، ص١٨٩ ط ، دار المعارف القاهرية .

ويقول الدكتور « شوقى ضيف » : (ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت)[1] ونحن نرى أن النصفة والصواب ما أومأنا إليه آنفًا من أن العرب فى الجاهلية عرفت ذلك اللون من الشعر ، وأنه ضاع مع ما ضاع من الألوان الأخرى وعفت عليه الأيام لعدم تدوينه أو الاهتمام به كغيره من بقية الفنون والألوان ، ولم ينل من الرواة العناية التى نالتها الأغراض الأخرى ، ذلك بالإضافة إلى بعد المسافة بينه وعصر التدوين ، ومما يؤيد صدق ما ذهبنا إليه مقولة الدكتور (شوقى ضيف) نفسه : « ومن المحقق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلى إذ عدت عليه عوادى الرواية وتلك الرحلة الطويلة التى قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين »[2] ويقول أبو عمرو بن العلاء : (أن ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير)[3] . فغير معقول أنهم أغفلوا ذلك الضرب من الشعر وهم أصحاب القرائح الصافية ، وبخاصة أنهم وصفوا كل ما وقعت عليه نواظرهم فلابد من أنهم مجدوا الأصنام والأوثان ، واستعطفوها ، وطلبوا منها النصرة على عدو ، أو تفريج كرب ، أو امتداحها بما يعبر عما لهذا الصنم والوثن من تقديس لديه . ثم يقول فى معرض حديثه عن (زهير) وكان فيه توقر ونبل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق (امرئ القيس) المفتون بالنساء ، وتصوير مغامراته القصصية معهن[4] وهل كان امرؤ القيس يصور مغامراته القصصية بشىء سوى الشعر ؟!! نعم إنه كان يصورها شعرًا ، ومثل ما فعل امرؤ القيس فعل جل شعراء الجاهلية .

ثانيًا : الشعر الغنائى : قضى اليونان بضعة قرون وليس لديهم غير الشعر القصصى ، وفيه أخبار آلهتهم وحروبها ، وعلاقاتها بالبشر ، ثم قالوا الشعر الغنائى وقد نضج لديهم نحو القرن السابع قبل الميلاد إثر الحوادث السياسية والحروب التى قامت بين الأحزاب

(١) العصر الجاهلى للدكتور/ شوقى ضيف ، ص١٨٩ ط ، دار المعارف القاهرية .
(٢) ذاته ، ص٣٠٣ .
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ، ص١٦ ط ، المطبعة التجارية الكبرى بميدان الأزهر الشريف ، القاهرة .
(٤) العصر الجاهلى ، ص١٨٨ .

اليونانية ، وتغلب فيها الشعب على الأشراف فأصبح اليونانيون فى القرن السابع قبل الميلاد أهل دولة وتمدن ورخاء فأصبحوا فى حاجة إلى شعراء يمتدحون بسالتهم ، ويشيدون بانتصاراتهم ، ويحضونهم على الثبات ، ويطرون أعمالهم ويصفون حضارتهم ، فظهر الشعر الغنائى ، وفيه المديح والهجاء والفخر والحماسة ، والرثاء ، ووضعوا له أوزانًا جديدة ، حيث إن الأحداث أوجدت هذه الأغراض .

والحروب من شأنها أن يكون فيها نصر وهزيمة . وموت وظهور أبطال شجعان ، فأمر طبعى أن النصر يحفز إلى المديح ، والموت يولد الرثاء والحب يدعو إلى الغزل ، وصار ملوك اليونان يقربون الشعراء لسماع مديحهم ونسيبهم كما فعل العرب إبان دولتهم .

ومن المعروف أنه يوجد لدى الغربيين منذ اليونان أنواع متباينة من الشعر يردها نقادهم إلى أربعة أضرب : « شعر قصصى ، وتعليمى ، وغنائى ، وتمثيلى » . وإذا كان الشعر الجاهلى يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترب من الضرب الرابع « الغنائى » لأنه يحول مثله فى مشاعر الشاعر وعواطفه . ويصوره فرحًا أو حزينًا . وقد وجد من قديم لدى اليونان إذ عرفوا المديح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يصحب لديهم بآلة موسيقية يعزف عليها تسمى « لير » ومن ثم سموه « ليرك » Lyric أى « غنائى »[1] . وإذًا فنحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى حيث إنه يماثل الشعر الغربى الغنائى لأنه يصور نفسية الفرد وما يحتاجه من عواطف وأحاسيس حين يتحمس أو يمدح أو حين يفخر ويهجو ويتغزل ويرثى ، يعتذر ويعاقب أو حين يصف ما يقع عليه نظره فى الجزيرة العربية ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، ويروون أن المهلهل غنى فى قصيدته :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ء لعوب لذيذة فى العناق

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء لدى أقدم شعرائه ثم يستطرد الدكتور (شوقى ضيف) قائلاً : ولذلك نرى صاحب الأغانى يورد أن شاعرًا جاهليًا تغنى ببعض شعره مثل (السليك بن السلكة) و (علقمة الفحل) وغيرهم[2] .

---

(١) العصر الجاهلى ، ص٦٨٩ بتصرف . (٢) ذاته ، ص١٩١ .

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ويقترن هذا الغناء لديهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة مثل (المزهر) والدف وكانا من جلد ، ومثل (الصنج) ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم (الجنك) ومثل (البربط) وهو آلة موسيقية وترية شاعت فى بلاد الإغريق .

ويقص علينا علقمة بن عيدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط[١] .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات بصدد الحديث عن الشعر وأغراضه (والغنائى أسبق هذه الأنواع إلى الظهور ، لأن الشعر أصله الغناء والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره ، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه)[٢] ، يقول الدكتور طه حسين وجورجى زيدان[٣] إن الشعر القصصى أسبق من الغناء وهو زعم لا مصدر له ، ولا دليل عليه ، فإن العلماء يكادون يجعلون الغنائى أصلاً والقصصى والتمثيلى شكلين من أشكاله .

ثم يقول (الزيات) ولما كان الشعر مادته الخيال ، والخيال غذاؤه الحس والعربى لا يرى من المناظر غير وجوه البادية ولا يسمع من الأقاصيص إلا البطولة والحرب ، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة ، وأبدع فى وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل ، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل ، وتفنن ما شاء له الحب فى التشبيب والعزل فالشعر العربى غنائى محض[٤] ، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه ، والتعبير عن شعوره وحسه والعواطف تتشابه فى أكثر القلوب ،

---

(١) الأغانى ، جـ٩ ، ص١١٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٣٩ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ص ٦٠ وما بعدها ، وكتاب فى الأدب العربى لطه حسين ، والمجمل فى تاريخ الأدب العربى له أيضًا .

(٤) تاريخ الأدب العربى ص ٣١ .

ويكاد التعبير عنها يتفق فى أكثر الألسنة ، ومن ثم نشأ فيه التكرار ، وتوارد الخواطر ، والرقة ، ووحدة الأسلوب ، وتشابه الأثر ، وكان من الحق أن يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكرورا[1]

ونحن لا ننكر وجود الشعر الغنائى لدى الجاهليين ، ولكن الذى ننكره ، ولا نوافق عليه مقولة بعض الباحثين ومنهم الدكتور (شوقى ضيف) والأستاذ (أحمد حسن الزيات) من أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى بحجة أن أبا الفرج يومئ إلى أن شاعراً جاهليًا تغنى بشعره ، والشعر فى أصله موسيقى لأنه يعتمد على الوزن والقافية وما الوزن والقافية إلا الموسيقى بعينها . وقد استقدمت العرب القيان المغنيات إلى جزيرتهم من أمثال (خليدة) وهريرة فى اليمامة[2] .

وكان بمكة بعض القيان المملوكة (لعبد الله بن جدعان) جلبهما من بلاد فارس ، وكانت تغنيان الناس[3] ، وما ورد فى كتب السيرة من أن أبا جهل أقسم فى واقعة بدر الكبرى بقوله (والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثًا ، وننحر الجزور ونطعم الطعام ، ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب)[4] .

ويوم فتح مكة أمر النبى ﷺ بقتل رجل يدعى ابن خطل وكان مسلمًا ثم ارتد ، وفرإلى مكة هاربًا ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول عليه السلام فأمر بقتلهما فقتلت إحداهما وفرّت الأخرى[5] . وتقص علينا كتب السيرة أيضًا ذلك الخبر وهو « أن أبا بكر رضى الله عنه دخل بيت رسول الله عليه السلام فوجد جاريتين إحداهما تسمى (زينب) والأخرى تدعى (حمامة) تغنيان بغناء بعاث أو بغاث ، وهى وقعة كانت بين العرب فى الجاهلية وقالوا فيها شعراً ، فزجرهما أبو بكر رضى الله عنه قائلاً (أمزمارة الشيطان فى بيت رسول الله ؟!! فقال ﷺ يا أبا بكر دعهما يغنيان فإن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا

---

(١) تاريخ الأدب العربى ص ٣١ .
(٢) الأغانى للأصفهانى ٩/ ١١٣ .
(٣) ذاته ٨/ ٣٢٧ .
(٤) الأغانى ٨/ ٣٢٧ وسيرة ابن هشام ٤/ ٥٣ والروض الآنف للسهيلى .
(٥) تاريخ الإسلام للأستاذ محمود شاكر ٢/ ١٩٢ ، ١٩٣ طبعة المكتب الإسلامى .

ليعلم الناس أنى بعثته بالحنيفية السمحة) : وتلك أدلة حاسمة على أن الغناء فى الجاهلية تأثر كثيراً بالعناصر الأجنبية الدخيلة وسمع النبى ﷺ ذات يوم عزفًا بالدفوف والمزاهر فسأل عنه فعرف أنه عرس[1] وأن هند بنت عتبة ، ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد ، وكانت مما غنته (هند) محرضة على القتال ذلك النشيد الحماسى :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق[2]

وكيف لا ؟ وقد ثبت أن النسوة كن يناغين أطفالهن بالشعر ، وكانت المرأة العربية فى الجاهلية تهدهد طفلها مترنمة ببعض المقطوعات حتى يهدأ ويقر عينًا ثم ينام .

فهذه امرأة تناغى طفلها قائلة :

قم قائمًا قم قائمًا أصبت عيداً نائمًا

وروى أبو زيد : أن قيس بن عاصم المنقرى أخذ صبيًا له يرقصه ، وأم ذلك الصبى منفوسة ، وهى بنت (زيد الفوارس ابن ضرار الضبى) فجعل (قيس) يقول له :

أشبه أبا أمك أو اشبه عمل ولا تكونن كهلوف وكل
وارق إلى الخيرات زناً فى الجبل

فأخذته أمه وجعلت ترقصه ، وتقول :

أشبه أخى أو اشبهن أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا[3]

---

(١) الطبرى ١/ ١١٢٦ .
(٢) الأغانى ١٤/ ١٦ والطبرى ٦/ ١٤٠٠ .
(٣) أمالى المرتضى ٢/ ١٢٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
يريد عملى - الوكل : الجبان . الهلوف : الهرم المسن وهو أيضًا كبير اللحية ، وإنما أراد به هنا : الجبان . زنأ : عمل أو أشبه دمل يريد عملى .

ومع كل هذه الأمثلة وتلك الشواهد فإننا نقرر بل نؤكد أن الشعر الجاهلى والعربى عرف الشعر القصصى ، وخاض شعراؤهم غماره ، وصالوا وجالوا فى حلبته .

ثالثًا : الشعر التمثيلى : إن الشعر التمثيلى هو الوجهة العملية من الشعر التى يراد بها تمثيل الفضائل أو الرذائل للعين ، وإن شئت فقل : إن المراد بالشعر التمثيلى فى أصل وضعه هو : تمثيل الوقائع التى ترمى إلى الموعظة ، أو الحكمة سواء مثلت على المسرح أو لم تمثل[1] ، ويقول (الزيات) الشعر التمثيلى هو : أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلاً منهم بما يناسبه من الأقوال ، وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال[2] . وفى الشعر القصصى شىء منه لأن (إلياذة) هوميروس لا تخلو من مشاهد تمثيلية ، فبدأ الشعراء بالعواطف يعبرون عنها بالشعر الغنائى ، ثم عمدوا إلى تمثيل الفضائل والرذائل على المسرح للإفادة منها وهو الشعر التمثيلى .

والعرب كسائر الساميين نراهم أكثر ميلاً إلى الخيال والتصور فلم يلتفت العرب إلى التمثيل ، ولم نعثر بين ما وصلنا من آدابهم قبل الإسلام على شىء من الشعر التمثيلى على سبيل المحاورة أو التمثيل كما هو الحال لدى اليونان أو من قيس منهم ، ثم يتساءل (جورجى زيدان) هل كان عند العرب شعر تمثيلى وفقد مع ما فقد من تراثهم الشعرى أو النثرى ؟ ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله : إذا أمعنّا النظر فيما خلفه العرب من أخبارهم وآدابهم وجدناه لا يخلو من التمثيل بأعَمِّ معانيه ، وإن لم يكن شعراً مجرداً بل هو مزيج من الشعر والنثر ، وقد وصل إلينا فى قالب القصص والحقائق التاريخية ، ولكن أكثرها موضوع أو كان له أصل تاريخى ثم توسعوا فيه[1] .

ويقول الأستاذ الزيات : أما الشعر القصصى والتمثيلى فلا أثر لهما فيه لأن مزاولتهما تقتضى الرؤية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال وتتطلب الإلمام بطبائع الناس ، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم وتفتقر إلى التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم تعمقًا فى البحث ، وقد قل تعرضهم للأسفار

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ١ ص ٦٣ وما بعدها ط دار الهلال سنة ١٩٥٧م .

البعيدة ، والأخطار الشديدة وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم ، وضيق خيالهم واعتقادهم بوحدانية إلههم ، كثرة الأساطير وهى من أغرز ينابيع الشعر القصصى فزخرت بحور الشعر العربى بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل ، والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة التى تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان ، والأوديسا للرومان ، ومهابهارته للهنود ، والشاهنامة للفرس[١] .

ويرى بعض الباحثين أيضًا أن العرب لم يكن لديهم من ألوان الشعر سوى اللون الغنائى فيقول : (ليس عند العرب من أنواع الشعر المعروفة لنا اليوم إلا النوع الغنائى الذى يتغنى فيه الشاعر بعواطفه ، ويصف لنا مشاعره فليس فيه ملاحم ، ولا شعر تمثيلى ، ففنون الشعر عند العرب فى ألوان هذا الشعر الغنائى[٢] .

ونقاد العرب يختلفون فى عدد هذه الفنون ، وفى الألوان التى تندرج تحت هذه الأعداد فبعضهم يجعلها أربعة فنون هى « الفخر ، والمديح ، والهجاء ، والنسيب »[٣] . ويعدها بعضهم أربعة كذلك ، ولكنه يضع الوصف مكان النسيب[٤] . بينما يضع الآخر (الرثاء) رابعًا للمدح والهجاء والنسيب[٥] ، أو يضع الاعتذار مكان الرثاء[٦] أو يجعلها أربعة وهى (المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو)[٧] .

ويفصل البعض هذه الأربعة بما يشمل ألوانًا كثيرة من الشعر العربى ، فيجعل المديح شاملاً للثناء على الأحياء وهو ما نسميه عادة بفن (المدح) والثناء على الميت وهو (الرثاء) والثناء على النفس وهو (الفخر) والثناء على المنعم وهو (الشكر) ويجعل

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات .

(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب د/ أحمد أحمد بدوى ص ١٢٤ وما بعدها ط دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة . وأحمد بدوى / نهضة مصر سنة ١٩٧٩م .

(٣) ثمرات الأوراق ص ٤٥ .

(٤) الموشح للمرزبانى ص ١٧٢ .

(٥) العمدة لابن رشيق ١/ ٧٧ .

(٦) ذاته .

(٧) نقد النثر ص ٨١ .

(الهجاء) شاملاً للذم وهو ما نسميه عادة بفن (الهجاء) وللعتاب والعتاب وللاستبطاء ، بينما تشمل الحكمة : « الأمثال والتزهيد والموعظة ، ويشمل اللهو والغزل وصفة الخمر »[١] .

وزادها بعض النقاد إلى خمسة مضيفًا : (الوصف إلى المدح والهجاء والنسيب والفخر)[٢] . وزادها البعض إلى ستة جاعلاً (التشبيب) لشدة تأثيره بابًا بمفرده ، ومضيفًا إلى ذلك (المديح والهجاء والنسيب والمرائى والوصف)[٣] .

وجعل أبو هلال العسكرى أشهر فنون الشعر ستة ، هى : المدح والهجاء والوصف ، والنسيب والمراثى ، والفخر)[٤] .

وبعضهم يرفعها إلى سبعة هى : المدح والهجاء ، والمراثى ، والاعتذار ، والنسيب ، والتشبيب ، واقتصاص الأخبار ، بينما يجعلها (ابن رشيق القيروانى) تسعة فنون درس كل فن منها فى باب مستقل وهى : النسيب ، والمدح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء ، والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد ، والهجاء ، والاعتذار[٥] .

أما صاحب المثل السائر فقد أطال الحديث فى إطالة لافتة لا تخلو من فوائد[٦] ، شاعرهم يذكر كتابًا مصنفًا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفردوس فى نظم الكتاب المعروف ، بشاهنامة وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم . وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة فى بحر[٧] . ونحن نرى أن شعرهم الجاهلى لا يخلو من هذا اللون .

---

(١) العمدة ١/ ٧٨ .
(٢) ذاته .
(٣) نقد الشعر ص ١٧ الصناعتين لأبى هلال العسكرىُ ص ١٢٧ .
(٤) قواعد الشعر ص ٢٨ .
(٥) العمدة لابن رشيق القيروانى ٢/ ١١٣ وما بعدها .
(٦) راجع جـ٢ خاصة ص ٣٤١ وما بعدها .
(٧) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير .

بيد أن عوامل الزمن حالت دون وصوله إلينا كاملاً وفى ثوب تستطيع الحكم عليه بأنه شعر تمثيلى دونما جدل أو ريبة ، وما وصل إلينا وإن كان الشك يكتنفه ، والريبة تحيط به ، إلا أن ذلك دليل على أنه كان موجوداً لديهم ثم تزيد فيه الرواة ، وجل هذه القصص ترمى إلى تمثيل الفضائل البدوية التى يمجدها العرب مثل : الوفاء ، والكرم ، والشجاعة ، والجوار والعفة والفروسية ، ونحو ذلك مما يحبه العرب ، تمثيلاً يجعله محببًا إلى نفوسهم ، وقريبًا من عقولهم وجعلوا الأبطال رجالاً مشهورين بهذه الصفات ، وتلك الخلال من أمثال (حاتم الطائى) وغيره .

وقصة « حاتم الطائى » والتى ذبح فيها فرسه ليكرم بها ضيفه ، وأبناؤه يتضاغون جوعًا فيها مبالغة لحث الناس وتشجيعهم على إكرام الضيف ، وقصة « السموأل ابن عادياه » التى قتل فيها ابنه ، ولم يسلم الأمانة المودعة لديه ، فهى موضوعة أو على الأقل مبالغ فيها لتمثيل الوفاء ، وأخبار العذريين فى العفة جلها موضوع وذلك لترغيب الناس فى العفة .

ولذلك نرى إجماعًا من الرواة على أن أخبار مجنون (ليلى) موضوعة والمراد بها تمثيل العفة مع الثبات على الحب ، وهى شبيهة بقصة (روميو وچولييت) لشكسبير ، وعلى ذلك النوع يقاس كل ما يروى من القصص فى الشعر العربى مثل قصة (عنترة ابن شداد العبسى) وهو شاعر فارس معروف فقد توسع الرواة فى هذه القصة ، وأضافوا إليها ما يرغب فى الشجاعة والفروسية .

بعد هذا العرض نستطيع أن نقرر أن الشعر القصصى والتمثيلى وجدا فى الشعر الجاهلى ، بيد أن جله من قبيل الشعر الغنائى وهو أرقى فى اللغة العربية منه فى سائر اللغات ، وليست هناك أمة من الأمم تضارع العرب فى كثرة الشعراء ، وغزارة النتاج الشعرى ، ولا غرو فإنهم من أقوى الأمم شاعرية وأقدرهم على النظم فى الشعر الغنائى بلا خلاف والدليل على ذلك ضروب شعرهم ، وعدد شعرائهم .

ولذلك أسباب طبيعية من أهمها :

إولاً : إن العربى بفطرته ذو نفس حساسة ، وشعور راق سريع الطرب سريع الغضب ، فيه بديهة وارتجال فيجيش صدره بالمعنى ثم ينطلق به لسانه ولذلك كان أكثر شعرهم غنائيًا ، أو موسيقيًا .

ثانيًا : إن لغة العرب لغة شاعرة وذلك لما حوته من أساليب الكناية والاستعارة ، والتشبيه ، والطباق ، والتورية وما إلى ذلك من ألوان البيان والمعانى والبديع ، هذا بالإضافة إلى كثرة المترادفات ، وهى فى ذلك من أغنى اللغات مما يجعل القافية ميسرة ، فالعربى من أنطق الأمم ، ولغته أوسع اللغات ، وألفاظها أدل من سائر الألفاظ ، وهى غنية بالحكم والأمثال .

واللغة قيمة كبرى فى تيسير النظم على الشعراء ، فالعرب مع اشتراكهم فى الطبائع والحس ودقة الشعور والشاعرية ، يلاحظ أن المتكلمين بغير لسان (مُضَر) لم ينظموا الشعر حيث كان لسانها شائعًا فى الجزيرة العربية عدا (اليمن) ومهرة (وعمان) وانتشرت الشاعرية بين الناطقين بهذا اللسان فى (الحجاز) و (نجد) وإن لم يكونوا عربًا حتى اليهود والعبيد من الزنج والنوبة ، وقد نبغ بعد الإسلام شعراء أصلهم من الفرس والروم والبربر والترك وغيرهم ، وذلك بفعل تأثير اللسان »[1] .

ثالثًا : صفاء الجو وجمال الطبيعة ، وتفرغهم للرحلة والانتجاع والنظر والتأمل فى هذه الطبيعة الخلابة الساحرة بالإضافة إلى صفاء قرائحهم واتقاد أذهانهم ، وأنهم بطبعهم أصحاب خيال محلق ، ودقة تصوير لما يرونه .

كل ذلك حفزهم على قول الشعر بل وإجادته ، وخاصة أنهم كانوا يراقبون أحوال الطبيعة من حولهم ولذلك نراهم قد وصفوا كل ما وقعت عليه نواظرهم من طبيعة جامدة أو متحركة ، وكذلك ما كان بينهم من معارك ضارية ، وأيام ومنافسات حفزتهم على القول ، وشجعتهم على تجويده .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان بتصرف ص ٦١ .